

يمكن كبير ، حتى تم الدراسة المقارنة ذات الأثر الفعال  
في تاريخ العلوم . وحتى يتيسر لنا أن نضع تاريخ الكيمياء  
في وضعه الصحيح (١) »



ثم بعد أن برتلو كتب جابر بن حيان التي  
لا يشك في أنها من تصنيفه يقول :

يسمح لنا تحليل هذه الكتب بأن نكون للفكرة العامة  
لميزات جابر ، وأن نبين كيف أن هذه الكتب ترتبط ارتباطاً  
مباشراً مع عدد معين من الأفكار والآراء والنظريات التي تبسط  
في التراجم اللاتينية للكتب العربية مثل كتب أفلاطون وأرسطو  
والرازي وابن سينا وغيرها من الآراء والنظريات التي انتقلت  
عن طريق الكيمياء العربية إلى الكيمياء اللاتينية في القرن  
الرابع عشر من الميلاد . وفي حركة النقل هذه ظهرت قيمة  
جابر بن حيان وكيف عهد أستاذ الكيمياء في الإسلام

ويمكن أن ترد بعض هذه النظريات إلى أصول يونانية ،  
ولكن الأعمال العربية لجابر تختلف تماماً من حيث عرض  
الأفكار وأسلوب البحث ومنهجه أو إثبات الظواهر ووضوح  
النظريات عن تلك الكتب التي ألفها متخيل اسم جابر  
Psuedo-géber ليس فقط في أن الظواهر الجديدة التي  
يشرحها هذا المؤلف كانت بجمولة تماماً عند العرب بل إنه من  
المتخيل أن نجد في المؤلفات التي تحمل اسم جابر Géber في  
اللاتينية صفحة حتى ولا فقرة يمكن أن تعتبر ترجمة لنص عربي  
ولكن هذا كله لا يمكن أن يقلل من شأن الكيمياء  
العربية التي أثارت تاريخ العلوم إثارة كبيرة إذ أنه عن طريقها  
أمكن معرفة تاريخ الكيمياء عند المصريين واليونان ثم في بزنتة  
وعند السريان ، ثم عند العرب أنفسهم (٢)

ثم إن كتاب الـ Summa لا يحتوي أي دليل يشير إلى أصله  
العربي سواء في منهجه أو في حقائقه أو في كلاته أو الأشخاص  
الذكورين فيه ، ولا في الخرافات الإسلامية التي هو خلقها  
تماماً

وليس شك في أن كتاب السوما Summa قد ألف قبل القرن  
التاسع بأقل من شك في أنه لا يوجد نمة أصل عربي هو ترجمة له  
في مثل هذا التنظيم البديع وتلك الإبانة الوافية . إذ أن مؤلفات

(١) Traité d'alchimie arabe V. III. P. 8.

(٢) نفس المصدر السابق ص ٢٣ - ٢٤

الوضع الحقيقي لمشكلة:

## جابر بن حيان

للأستاذ أحمد زكي صالح

تقرير الأستاز برتلو Berthelot

وبرتلو هذا هو أول من تعرض لبحث مشكلة جابر بن حيان  
على منهج علمي منظم ، وذلك في ثنايا عرضه لتاريخ الكيمياء  
في كتابه La Chemie de Moyen Age ، حيث يعرض برتلو  
منهجه قائلاً : « ولكي نجزي هذه المشاكل المسيرة ، ونعين بها  
مشاكل كتب جابر بن حيان ، التي تعانينا هذه الرحلة العلمية ،  
فإن الدراسة المباشرة للنصوص أو التراجم اللاتينية تفيدنا أكثر  
إفادة ، ولكن هذه الدراسة النقدية لا تكفي تماماً ، إذ أنه يدولى  
أنه من الضروري أن نستعين بدراسة المؤلفات العربية نفسها ،  
وأن نقارنها بالنصوص اللاتينية المعروف أنها ترجمة لها . ولكن  
هذا ليس بالأمر اليسير ، ذلك لأن معظم النصوص العربية فقدت  
في ركاب الدهر ، ولكن يوجد بعضها في المكاتب الأوربية  
مثل ليدن وباريس ، وإن نشر هذه المخطوطات من الضرورة

والإحاطة بما فيها ، فإذا بالتي فيها كثر لا يفي ، ككل كثر  
في كل نفس ، غير أن هذا كثر مفتوح لم تتكسد عليه  
الأكاذيب والأباطيل

فليس عجيباً بعد هذا أن تتاح صحة من للفنون الجميلة للفنان  
التي نفسه هي هذه النفس ، فيكون أديباً ومثلاً ومثلياً وراقصاً  
ومطماً وغير ذلك

وإذا كان الفرد يقد وينجح في التقليد نجاحاً خفيف الروح  
يهيج الظل لأنه يتطلع إلى غيره ، فإن للإنسان أن يكون فناً  
إذا تطلع إلى نفسه وهي أقرب إليه من غيره .

هزبة أحمد فحسي

جابر للمرية وأبحاث ابن سينا لا يمكن أن تلي علينا للتسليم بأن كتاب اللسوما Summa ترجم عن أصل عربي ونحن لا ننكر أن بعض العبارات قد اقتبست من مؤلفات جابر المريني، الذي لا زال وجوده ع.ي. ولكن على الرغم من ذلك لا نستطيع أن نقول بإمكان ان يكون مؤلف هذا السفر الجليل عربياً مسلماً ، إنما الافتراض الذي يبدو لي معقولاً هو أن مؤلفاً لاتينياً لا زال مجهولاً لنا تماماً كتب هذا الكتاب في النصف الثاني من القرن الثالث عشر من الميلاد ونسبه إلى جابر كما فعل الكيميائيون الليونان في مصر الذين وضعوا اسم ديمقريطس على مؤلفاتهم كي تشتهر وكما فعل الكيميائيون السريان في نقلهم مؤلفاتهم لديمقريطس كذلك

وقصارى القول إذن أن المؤلف اللاتيني Psuedo - gébèr «المدعى الجابرية» قد احتل مكانة سامية في العالم الكيميائي بفضل وضوح منهج ال Summa وإمتهانها من غيرها من المؤلفات المرية للبعثة حتى صار هذا المؤلف في القرن الرابع عشر من الميلاد أساس الدراسة الكيميائية في العالم أجمع ، ولكن نسبة هذا الكتاب للمرب أنفسهم أفسد كل تاريخ العلم لمنعه لهم هذه القدرة العلمية الإيجابية التي ما وجدت لديهم يوماً ما (١)

مناقشة تقرير برتلو

يرى الأستاذ برتلو أن وضوح كتاب اللسوما Summa وأسلوبه وتنظيم أبوابه وقوة نظرياته ومنهجه الخاص تكفل لهذا السفر الخروج عن دائرة التأليف الإسلامية ، والدخول في دائرة التأليف اللاتينية ، ولكن لم لا يكون جابر هو الذي كتب هذا المؤلف ، بالمرية طبعاً ، في أخريات حياته ، بعد أن اكتمل له حظ كبير من المصونة العلمية ومن الآراء والنظريات السابقة له ؟ ولكن هبني سلت بأن جابر ألا يعرف التنظيم في مؤلفاته ، وهذا جيد جداً ، فلم لا يكون هذا التنظيم وذلك الأسلوب اللذان ركز عليهما برتلو تقده الطويل ، من عمل المترجم ؟ وكل ما هنالك أن هذا السفر الكيميائي كان حظه أوفر من حظ غيره من الكتب ، إذ وُهب مترجماً ميالاً للأدب ، ضليماً في لغته ، فأما تمام الفهم ما هو في سبيل ترجمته . وأؤكد أن هذه الأمور لو توافرت في أي مترجم نلجرت الترجمة

(١) Berthelot : Traité d'alchimie arabe راجع

وهي تضارع الأصل في وضوح الفكرة وجمال المرض فالأساس الذي يعتمد عليه برتلو في تقده كتب جابر بن حيان أساس خاطئ ، حظ للشك فيه راجع على حظ اليقين . ونحن نكتفي بأن نسأل سؤالين :

أليس من اليقين القاطع أن أعمال جابر المرية التي في متناول أيدينا تدل على نبوغ وعبقرية ؟ ولم لا تكون هذه الكتب اللاتينية الأربعة التي سبق أن أشرنا إليها في بدء المقال ، قد ترجمت من أعمال أخرى لجابر بن حيان ؟

أما السؤال الأول فإن برتلو يسم بأن للكتب المرية لجابر ابن حيان تدل على نبوغ وعبقرية ولقد لاحظ الأستاذ رسكا Ruska ، خليفة برتلو في الاهتمام بمشكلة جابر بن حيان ، أن عمليين من المؤلفات التي نشرها برتلو إنما تدل على سمو وامتهان ، وعلى عقلية نامية نابضة

أما السؤال الثاني : فإن إجابة برتلو عليه كما سبق أن بينا ، لا تلزم الباحث بضرورة الاقتناع برأيه وعلى ذلك فإن القول بأن هناك أسباباً وجيهة جعلت كيميائياً لاتينياً ينسب أعماله لجابر بن حيان لشهرته التي لم تأت فقط عن طريق التراجم المرصنة كذكراته ورسائله ، إنما كذلك من طريق التراجم اللاتينية لبعض المؤلفات المرية لجابر بن حيان الدالة على نبوغ وعبقرية ، والتي أكثرها أهمية بدون شك هو كتاب السبعين الذي نشره برتلو وهو داس Haudas في سنة ١٩٠٣

حسب مخطوط بالكتبة الأهلية بباريس ولما كان من المستحيل أن يكون لدينا رأي جازم في مستوى الأسلوب العلمي في ذلك الوقت فإنه ليس من الممكن أن نعلم بأن كتباً كتبت على أسس جديدة غير الأسس القديمة ليست من أعمال جابر بن حيان

ونحن لا نكتفي هنا ببيان استحالة صحة رأي برتلو من الناحية الأسلوبية فقط ، إنما كذلك تحت أيدينا من النصوص ما يثبت قطعاً أن رأي برتلو في مجالته لمشكلة جابر بن حيان من الناحية الموضوعية خاطئ كل الخطأ كذلك

والآن فلنقارن بعض النصوص اللاتينية التي يذهب برتلو أن جابر لم يظن إلى معانيها ، أو إلى التجارب التي تشرحها ، ببعض النصوص المسلم بأنها من عمل جابر بن حيان ، من جميع العلماء المستشرقين :

من حسن الحظ ، أو من سونه ، لا أدري ، أن جابر بن حيان قد أفرد كتاباً لهذا الموضوع فقط هو كتاب «التكليس» ، ولا يشك أحد أنه من عمل جابر بن حيان فلنقارن للنصوص ، وتركها تكلم :

جاء في كتاب الجمع Summa في النص اللاتيني ما ترجمته : «التكليس هو تأكسد المادة بواسطة التسخين ، وذلك أنه يسلب الماء والرطوبة منها فتتجمع أجزاءها ، والسبب في ذلك هو أن تجفيف الكبريت وتلويته وإنساده يمكن أن تمنع بواسطة التسخين ، ولكن هذا المنع يختلف باختلاف الأشياء المتكاسمة إذ أن الأجسام تكلس كما تكلس الأرواح ، ولكن رغم ذلك توجد بعض الأشياء الخارجة عن طبقة هذه وتلك ... (١)»

وقد جاء في كتاب للتكليس لجابر بن حيان : «النرض من تكليس المعادن هو إزالة عدم صفائها وعدم نقاوتها»

«وكل معدن يكلس بطريقة تختلف عن الطريقة التي يكلس بها معدن آخر ، ذلك لأنه يوجد بعض المعادن النقية الصافية بطبيعتها وفي هذه الحالة يكون للنرض من للتكليس هو تحويل المعدن إلى مسحوق ناعم . أضف إلى هذا كله أن الحقيقة القائلة بأنه إذا طرقت للفضة حتى صارت صفائح رقيقة ثم سخنت بهد ذلك في درجة الحرارة الملائمة يمكن سحقها بعد ذلك مباشرة كالزجاج تماماً ، ثم إذا صهرت مع البورق Borak ، ترجع ثانية إلى حالتها الأولى أي على صورة سبائك غير مطروقة . أقول إن هذه الحقيقة إنما وجدت في كتاب الخواص قبل غيره من الكتب ، وهو كتاب لا يمكن أن يتطرق شك إلى أنه من عمل جابر بن حيان وآية ذلك كله أن محتويات الكتب اللاتينية لها شبهة في محتويات الكتب العربية إن لم نقل إنها هي نفسها ، وهو القول الأقرب إلى الحقيقة وللصواب

أحمد زكي صالح

«ينبع»

\*\*\*

وقمت بعض أخطاء مطبعية في المقالة السابقة نكتني بالإشارة إلى صحبها : هامش من ١٢٠٥ — العدد الثالث : (١) ذكر رسكا في مقاله في Islamic culture 1937 ، وفي هامش من ١٢٠٦ — العدد الأول : (١) من مقال له في Legacy of Islam

(١) يلاحظ أن النظرية غربية بعض الشيء ، وذلك لأنها نظرية صر عليها الآن ستة لرون

أولاً : كتاب الاستهام ، هذا الكتاب ذكر في الفهرست لابن النديم ، ويذهب المستشرقون إلى أن هذا الكتاب ، أعني ترجمته باللاتينية التي نقلت بدورها إلى الإنجليزية تحت عنوان Book of search of Perfectoin إنما هي منسوبة إلى جابر بن حيان انتحالا ، ويذهب برتلو إلى أن هذا الكتاب يحتوي على نظرية الكبريت Sulphur mercury التي لم يحاول العرب التفكير فيها . ونحن الآن نقتطف نصاً من هذه الترجمة اللاتينية ونصاً آخر من كتاب لجابر بن حيان بالعربية وهو «الإيضاح» ونرى بعد ذلك هل حقاً يوجد تباعد بين الفكرتين ؟

يقول كتاب Book of Search of Perfection ما ترجمته «تركب جميع المعادن من أصل واحد هو الكبريت سواء كان قديماً أم لم يكن»

ويقول كتاب «الإيضاح» (مخطوط بدار الكتب بالقاهرة) : «تتكون جميع الأجسام المعدنية في جوهرها من الكبريت المنزج مع الزئبق ... ولأنها إن يختلف بعضها عن بعض فذلك إلا لسبب اختلاف خواصها المرضية»

فإن إذن هذا التباعد بين النظريتين ؟

ثانياً : كتاب السوما Summa أي الجمع :

ولعل هذا البرهان الذي سنسوقه الآن هو الذي سيضع المشكلة في وضعها الصحيح ، فقدمت الكتاب اللاتيني ترجمت عن العربية ، إذ جاء فيها ما ترجمته «إن ما ذكره غير كامل في كتبنا السابقة قد أكتناه في كتابنا هذا»

وهذا ما يتفق تماماً وملاحظات جابر وتعليقاته في أنه قد فرّق برأيه في كتب مختلفة . وهو قد قال : «إن البحث ينبغي أن يُصنّف بالشكل الذي يوافق الطبيعة» ؛ كما يذكر أن الكيميائي يريد أن يقرر الطبيعة بوسائل مصنعة . كما يذكر أيضاً أن الكيميائي ينبغي أن يكون مجتهداً في عمله مواظباً على الوصول إلى نتيجة نهائية ، وألا يسلم لنتائج سريعة وظواهر خداعة في كتاب الجمع Summa ، أتى ذكر عملية التكليس في

الفصل الرابع عشر ؛ فبالرغم من أن التمايم والأوصاف التي أعطتها جابر اللاتيني في وصفه لجهات التجريبية وخطوات العمل فيها تتفق تماماً مع تلك التي قال بها جابر بن حيان في كتاب الخواص ، الذي لا يشك أحد أنه من عمل جابر ، فإن الأستاذ برتلو يمتدح بأن عملية التكليس هذه لا نظير لها في الكتب العربية ، ولكن